القسم الرابع - بين أستراليا ولبنان

p. 201-237

FULL TEXT

للأماكن ألسن وللألسن أمكنتها

1 حاولت العودة إلى لبنان مرّتين. في المرة الأولى وكانت عام ١٩٩٣، اكتشفت صعوبة الاستقرار فيه مع عائلتي لأسباب تتعلق بشروط العمل الذي كنت أقوم به، وبتدهور الأوضاع السياسية المتسارع مع إلقاء القبض على رئيس حزب "القوات اللبنانية" وإصدار الحكم بوضعه في السجن. اعتقدت وقتئذ من غير المناسب أن أجلب أولادي إلى لبنان، وقد ولدوا في سيدني، بينما التطورات السياسية لا تنبئ بالأمن والاستقرار. فاعتزمت أنا وزوجتي العودة إلى أستراليا، وكان ذلك بعد مرور ما يقارب السنتين على وجودنا في لبنان. في المرة الثانية، قررت العائلة العودة إلى لبنان وكان ذلك عام ٢٠٠٠، وانتهى بنا الأمر بأن عدت لوحدي، وبقيت العائلة في سيدني رغم محاولات عديدة لاستقدامهم إلى لبنان، وفشل تلك المحاولات بسبب تدهور الأوضاع السياسية أيضاً ابتداء باغتيال رفيق الحريري، وما تلاه من أحداث لا تشجع أبداً على عودة جميع أفراد العائلة واستقرارهم في البلد من جديد. ومع مرور الوقت، والتأرجح بين خيار عودة العائلة إلى لبنان وعدم عودتها، إضافة إلى تقلص فرص العمل في الجامعات في سيدني في السنوات التي تلت اغتيال الحريري، رست القاعدة على أن أبقى أعمل في لبنان في الجامعة اللبنانية الأمريكية، وتبقى عائلتي مستقرة في سيدني. وكنت أحاول التخفيف من وقع هذا القرار الصعب عليّ وعلى عائلتي بأن أعود إلى سيدني مرتين في السنة لأمضي عطلة عيد الميلاد ورأس السنة وعطلة الصيف بتوقيت لبنان مع عائلتي، إضافة إلى الزيارات المتواترة إلى لبنان التي كانت زوجتي تقوم بها بين الحين والآخر.

2 خلال المحاولة الأولى والثانية للعودة إلى لبنان، كانت التجربة مضغوطة بعدة اعتبارات متناقضة حيال مسألة العودة النهائية أو العزوف عن هذا القرار والاستقرار في أستراليا بصورة نهائية. أذكر جيداً كيف كنت أنظر من الطائرة أنا وزوجتي إلى لبنان وهي تحلق فوق جباله متوجهة إلى مطار بيروت عام ١٩٩٣. كانت المرة الأولى التي أحدق فيها "من فوق" على مساحة كبيرة من لبنان ككيان جغرافي ماثلاً تحت عينيّ. وخلال هذا التحديق، قمت بصورة لاشعورية بربط هذا الكيان الترابي بالكيان "المتخيَّل" الذي تكوَّن لدي منذ نشأتي ثم صُقلت صياغته بحدة أكبر مع التزامي السياسي والرهانات التي عقدتها عليه. إذ لم يعد الكيان متخيَّلاً فقط، لكنني لم أتمكن من فك خصائصه الجغرافية عن رموزه المتخيَّلة. وبالطبع، أخذ هذا التداخل بين "ا أكثر فأكثر مع وجودي في لبنان خلال العودتين، الأولى والثانية. وتجلى ذلك ؛ التي عرفتها وتفاعلت معها لألف سبب وسبب قبل هجرتي الأولى من لبنان. الذي قضيته فيه والأشخاص الذين تفاعلوا معي بين جنباته. الفصل بين الحي الآخرين، هو فصل ذهني لأغراض تتعلق بمقتضيات التحليل و"القبض" على يستغربنَّ أحد إذا قلت إنه بفعل هذا التداخل يمسي للحيز الجغرافي طاقة عل كنت فيه في يوم من الأيام. فهذه الطريق تستحضر الزمن الغابر حين كنت أ المدرسة التي قضيت فيها سنوات أتعلم وألعب وأشاكس وأنزوي وأفرح وأع غادرناه وتركنا الأثاث فيه على أمل العودة المرتقبة إليه، وقد تحول إلى "خربة بين القبة وزغرتا. وهذه محلة التل في طرابلس، ومحل الفلافل، وسينما الكول الأفلام... حقاً إن للأماكن ألسناً وللألسن أمكنة، وكل مكان يتحول إلى استعارة أنا المهاجر العائد إلى لبنان، أجد نفسي مهووساً بفكرة اللقاء ثانية مع الأصحا أوائل سبعينيات القرن العشرين. والغريب عند فوزي باللقاء أن أجد نفسي مد

كنت أعامله قبل لحظة الفراق. إنه الشخص نفسه الذي كنت أعرفه سابقاً رغم أنف الزمن والتحولات التي عاشها (وعشتها أنا أيضاً). وسرعان ما نجدنا نتبادل الأحاديث والمعلومات لملئ الفراغات التي أحدثها الانقطاع الطويل، لأعود إلى التمسك مجدداً بـ"الصديق" الذي عرفته قبل الرحيل إلى أستراليا. يبدو لي أنني متمسك بالماضي تمسكَ الأم بولدها الرضيع. ويبدو أنني محكوم بالزمن الذي عشته قبل مغادرتي للبنان ولا أريد أن أتفلّت من قيوده التي تصوغ زمن ما بعد العودة إلى وطني لبنان.

3 وكان لعودتي إلى لبنان في المرة الأولى والثانية بعدٌ سياسيٌ أيضاً ذو نكهة خاصة. فأنا العائد إلى الوطن، والمنظمة السياسية التي عملت في صفوفها لأكثر من عقد ونصف كانت تعاني من أزمة وجودية بقيت تلازمها لأكثر من عقدين من الزمن. ورغم ذلك بقيت الرموز "القيادية" التي ساهمت في اجتذابي إلى تلك المنظمة تحتل في "مخيلتي" مكانة مثالية لا تمسها أية شائبة قد تؤدي إلى "تدنيس" صورتها. ومع مرور الوقت، تبين لي تدريجياً أن حقيقة تلك الرموز لا تتطابق تماماً مع صورتها المثالية التي استحكمت بمخيلتي. فهم بشر عاديون يخطئون كما الآخرين، وتتحكم بهم خصائص لا تمت بأي صلة إلى الصورة "المتخيلة" عنهم. ورغم ذلك، لم يردعني ذلك الأمر عن البقاء على تماس مع معترك العمل السياسي والرهان على التغيير من جديد.

4 فحقيقة الأمر أن هذا هو "لبنان" الذي عدت إليه وهذا هو "لبنان" الذي انجذبت إليه رغم "البشاعة" التي اكتشفتها تعشعش في خلاياه في الزمن الحاضر وهو ماثل أمام عيني. ومع مرور الوقت، بدأ "لبنان" و"الأشخاص" الذين عدت إليهم بالتلاشي. وبدأت، في موازاة ذلك، بمراكمة لحظات وتجارب كفيلة بأن تشدّني إلى وطني الأول من جديد كلما غادرته للالتحاق بعائلتي في سيدني، رغم أنني كنت ازداد تذمراً وانتقاداً لما كنت أواجهه يومياً خلال وجودي فيه.

الحضور المتنافر والمتنوع والمتداخل للعائد إلى الوطن "الأم"

5 العيش في لبنان بعد قضاء ما يقارب الثلاثين سنة في أستراليا له تبعات من الصعب تفاديها، خصوصاً أنني لم أتوقف عن العودة إلى سيدني والقضاء فيها ما يقارب الأربعة أشهر سنوياً. وجودي في أستراليا لثلاث عقود متتالية، دفعني إلى استبطان العديد من العادات لا سيما تلك التي عززت نزوعي لرفض "الطبقية" و"شوفة الحال" التي تأتي مع الارتقاء الاجتماعي، أكان بدافع مراكمة المال أو المكانة الاجتماعية. يتسم المجتمع الأسترالي بأنه مجتمع ذو نزعة مساواتية Egalitarianism تعود أصولها إلى السياق التاريخي الذي تكونت فيه "الأمة" الأسترالية (صحيح أن هذه النزعة تكونت بسبب التمرد الأصلي والأصيل للمستوطنين الأوائل ضد السلطات البريطانية المستعمرة التي كانت تنفيهم إلى القارة الأسترالية بتهمة ارتكابهم جرائم بحق السلطات في المملكة البريطانية المتحدة، إلا أنها للأسف لم تشمل الأبوريجينيز -أي سكان أستراليا الأصليين- ... القيود العنصرية التي تتحكم بتلك النزعة). ومع مرور الزمن، تحولت هذه النز... المجتمع الأسترالي بصورة تلقائية.

عند عودتي الى لبنان، لم أدرك مدى استبطاني لتلك النزعة إلا عندما واجهت "الدكتور" بنوع من النفور والامتعاض التلقائيين، خصوصاً عندما كان يحدث ... كنت أدرس فيها. وبالرغم من ذلك، لم أتمكن إلا نادراً من إقناع البعض بالتخلي ... لي. فبقدر ما كان نفوري من لقب "دكتور" عفوياً، كان استخدام اللقب عند الآ... والدولة الأسترالية لم يمر بمرحلة الإقطاع وما تستجره من عادات وتقاليد تقو... الحقوق والواجبات والمكانة على أساس الجذور العائلية والمراتب الاجتماعية ... لا يزال يجرجر أوصاله في الزمن الحاضر وينتعش من جديد بعوامل "الحداثة" ... الحياة والديمومة.

وفي إطار العيش اليومي في لبنان، كنت أختبر "النفور والامتعاض" التلقائي ... أواجهها. من المتوقع أن كل من يزور بلداً غربياً يلاحظ الفارق البارز مع لبنان ...

والحافلات والموتوسيكلات على الطرقات. ولكن شتان بين أن تعي هذه المسألة وبين أن تختبرها يومياً بعد أن يتم "تدجينك" وتعويدك على الالتزام الصارم بقوانين السير على مدى ثلاثين سنة من العيش في أستراليا. والحقيقة أنني حصلت على رخصة لقيادة السيارة لأول مرة في أستراليا فيما لم يسمح لي لا الوضع المالي ولا عمري بالحصول عليها في لبنان قبل أن أهاجر مع أهلي إلى سيدني. وخلال وجودي في لبنان للعمل منذ العام ٢٠٠٠، لم أرغب في قيادة السيارة إلّا نادراً، وذلك لعدم قدرتي على التأقلم مع الطريقة الخاصة التي يقود بها الناس هناك. ورغم مضي عشرين سنة على وجودي في لبنان ولو بصورة متقطعة، إلّا أن ردة فعلي اللاإرادية لا تزال "مدوزنة" على "إيقاع" نظام السير في أستراليا. ولذلك أجد نفسي لغاية الآن أنفعل لدرجة "الشتم" عندما أواجه الطريقة التي يتصرف بها السائق اللبناني عموماً وهو يقود سيارته. وفي هذا الإطار، تستوقفني ملاحظتان لا أزال أسمعهما لغاية الآن: الأولى من أصدقائي وهم يقودون السيارة بينما أنا جالس إلى جانبهم إذ يبادرون فوراً إلى دعوتي لعدم الانفعال تحسباً من ردة فعل السائق المخالف بكل المقاييس: "ربما كان مسلحاً أو "مدعوماً" أو الاثنين معاً، وقام بأذيتنا". والملاحظة الثانية، وهي أكثر "تمدناً" وطرافة، الصادرة من السائق الآخر الذي ضاق ذرعاً بالتزام صديقي (أو أنا في الحالات النادرة التي أقود فيها السيارة بنفسي) بالوقوف على الإشارة الحمراء، موجهاً الكلمات التالية بنوع من الاستهزاء: "بدك تكون جايي من برّا".

8 في أحد الأيام كنت عائداً إلى البيت مشياً على الأقدام بعد انتهاء عملي، باشرت في العبور من جانب الطريق العام إلى الجانب الآخر بعد تأكدي من اللون الأخضر لإشارة المرور ومن خلو الطريق أيضاً من السيارات التي قد يخطر على بال سائقها أن يعبر التقاطع رغم الإشارة الحمراء قبالة عينيه (اكتسبت هذه العادة الأخيرة بعد فترة طويلة من السكن في لبنان، رغم أنه من المستحيل أن تخطر على بالي في سيدني). ولم أكد أخطو الخطوة الثانية باتجاه الجانب الآخر من الطريق، وإذ بسائق موتوسيكل يمر كالسهم من أمامي قادماً بعكس اتجاه السير، وكاد أن يصطدم بي ويوقعني أرضاً. بصورة عفوية وبدافع الذعر من خطورة ما حدث لي وعدم توقعي له توًّا، "شتمت" السائق على فعلته بصوت عالٍ ما دفعه إلى التوقف والعودة إلى حيث كنت أقف، وأنا لم أزل تحت تأثير صدمة ما حدث. "فيني أعرف ليش سبيت الخالق؟" بادرني بهذا السؤال مؤكداً لي أن ما أثار سائق الموتوسيكل لم يكن خروجه على القانون والخطورة على سلامتي (وربما سلامته أيضاً) التي تعرضت لها وإنما شتيمتي التي أصابت معتقده الديني. بعد ذلك، عكفت عائداً إلى بيتي وأنا أشعر للمرة الألف كما لو أنني "سمكة خارج الماء" كما يقول المثل الإنكليزي. يبدو أنه من شبه المستحيل أن أتقبل وأتعود على المبدأ العام الذي يوجه قيادة السيارات في لبنان، ألا وهو "قانون إملاء الفراغ" سعياً للوصول إلى الهدف المنشود.

9 والأمر الثالث الذي لم أزل غير قادر على قبوله لتعارضه مع "الطبع" الذي امتلكته بسبب سكني الطويل في أستراليا، هو نزوع "الفرد اللبناني" لعدم الوقوف في الدور وهو يسعى لخدمآ
التصرف عفوياً، وكاد أن ينزلق بي إلى "التلاسن" مع الآخرين، أكان في دوائر

هذا تسجيل بسيط وشفاف للحظات التنافر بين بعض خصائص "تطبّعي" فـ
تصوغ العلاقات الاجتماعية في بلدي الأم "لبنان". فعلاً، الهجرة تعيد صياغة
بحيث تمسي تلك العلاقة محكومة بأمكنة وأزمة وقيم أكثر تنافراً وتداخلاً وتنو
أن يفسح المجال أكثر فأكثر للتفكّر والنقد والفعل التغييري نحو الأفضل.

الهجرة العائدة.. طاقة تغييرية؟

مع عودتي إلى لبنان وسكني فيه بصورة شبه متواصلة لعقدين من الزمن، لـ
عدت إليه ليس هو "لبنان" الذي غادرته فحسب، بل بدأت أكتشف أموراً جديد
الموقع الجديد الذي أصبحت فيه، والمنظور الذي امتلكته عبر سنوات الغياب
أصبحت بيروت لأول مرة في حياتي المكان الذي أسكن وأزاول مهنة التعليم
الفيل لبضع سنوات، ثم انتقلت إلى راس بيروت، قرب الجامعة التي عملت فـ
والأنثروبولوجيا).

12 محلة القبة، في طرابلس، حيث ولدت وترعرعت لغاية العام ١٩٧١، كانت تختلف عن منطقة راس بيروت. كانت القبة في ستينيات القرن الماضي حديثة التكوين وملتقى النازحين من الريف في قضاء زغرتا وبشري. أما النازحون من عكار والضنية، فكان عددهم أقل. كان النازحون حديثاً إلى أطراف مدينة طرابلس يندمجون تدريجياً بنسيجها، لا سيما من مدخل سوق العمل والخدمات التي كانت توفرها لهم، كما كانت تستقبلهم للسكن مع عائلاتهم في مجالها الجغرافي الرحب. حرفيون وأصحاب مهن حرة ومصالح تجارية صغيرة الحجم (أصحاب الدكاكين مثلاً) وموظفون في القطاع الخاص والعام. لذلك كان الطابع الغالب على سكان القبة يتسم بغلبة العائلات النواتية والاختلاط المذهبي (موارنة وروم وسنة) والانتماء إلى الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى وأصحاب المداخيل المحدودة. وكان عدد العاطلين عن العمل قليلاً، على ما أذكر؛ إلا أن الساعين للسفر والعمل في الخارج، ومن ضمنهم أهلي، كانوا يشكلون نسبة لا بأس بها وموضوعاً يتناقله الجيران على الدوام.

13 عندما انتقلت إلى رأس بيروت في أوائل القرن ٢١ للسكن ومزاولة مهنتي في التدريس الجامعي، كان المشهد بالنسبة لي كمهاجر عائد إلى لبنان مختلفاً إلى حد كبير عن لبنان الذي اختبرته قبل رحيلي عنه. بدا لي أن مستوى "الاندماج" الاجتماعي في رأس بيروت أقوى، ولكن دون أن يتجاوز بالكامل الهويات المحلية والعائلية والطائفية. كانت تلك الهويات تتجاور مع نزوع جارف لدى أبناء الفئات العليا والمتوسطة من الطبقة الوسطى نحو الاستهلاك والفردانية المنهمكة دوماً بتثبيت ذاتها في وجه العصبيات الأهلية التي يتحدرون منها. ورغم التراجع الذي أصاب هذه المنطقة بسبب أهوال الحرب الأهلية لمدة خمسة عشرة عاماً، إلا أن أهلها حافظوا على طابعها "الكوزموبوليتاني"، الأمر الذي كان يدعمه ويعززه وجود الجامعة اللبنانية الأمريكية وجامعة بيروت الأمريكية، وهما مؤسستان تربويتان عريقتان، إضافة إلى الشركات المالية والسياحية والخدماتية والعديد من المؤسسات الحكومية والمدارس الخاصة.

14 هذا "اللبنان" الذي عدتُ إليه كان بالتأكيد مختلفاً بالنسبة لي شخصياً، أنا الذي قضى ثلاثين سنة أو تزيد في سيدني، واختبر العيش في مجتمع رأسمالي "معقلن" تنكفئ فيه الهويات الأهلية أو أقله لا تشكل فيه المعيار الرئيسي في تحديد التعامل بين الأفراد وفي صوغ حقوقهم وواجباتهم من حيث المبدأ. في أستراليا، اختبرتُ لثلاثة عقود معنى أن تكون مواطناً وأن تصارع كمهاجر لتثبيت هويتك وأنت تملك الحقوق نفسها التي يتمتع بها سائر الأستراليين، دون أن يعني ذلك التغاضي التام عن الفروقات الناتجة عن التمييز الإثني أحياناً والتفاوت الطبقي بصورة دائمة. أما في رأس بيروت، فالفرد غير محمي بهويته الراسخة بصفته مواطناً له حقوق وواجبات متساوية مع الآخرين؛ لذلك نجد أنه يتم تذكيره يومياً بموقعه الطبقي إذا تعذرت الإشارة إلى خلفيته الطائفية والعائلية. إن غلبة الفئات المتوسطة والعليا من الطبقة الوسطى، لا سيما المثقفة منها والفنانون والمالكة للشهادات الجامعية، أي الفئات التي تملك الكثير من "الرأسمال الثقافي" (بو
(أي محيط جامعة بيروت الأمريكية ومنطقة الحمراء) يعطي سكان تلك المنط
نسبياً الحواجز التي تقيمها "الهويات الأهلية" بين أفراد "المجتمع" اللبناني. إ
الفئات مدعوماً بقدرات مالية أكبر من تلك المتوفرة لفئات العمال وصغار الـ
تمتلكها طبقة الأغنياء، يجعلها تقيم "مساحات" مشتركة بين الأفراد والعائلات
"المساحات" بنمط العيش الذي يتبعونه والذي يتسم بالاستهلاك المادي (الم
تجميل وسيارات ومطاعم وسفر وإلخ) والثقافي (من مسارح ومعارض ومتاح
ذلك، تبقى المرجعية الأشمل لمختلف الفئات الطبقية ليست المواطنة، وإنم
على هويات أكثر حصرية كالهوية المناطقية والعائلية.

والملفت أن الأوساط المنتجة ثقافياً (من روائيين وشعراء وعلماء اجتماع ومفـ
بيروت، لها خصائص مميزة تعود بنيوياً إلى تركيبة المجتمع اللبناني وطبيعة
رأسمالي متخلف، غير أن انخراطه في المسار الرأسمالي لم يأت "من فوق" ذ
حزب أوحد كما في العديد من الدول العربية المجاورة، بل جاء "من تحت" عبر

القرن التاسع عشر. وصحيح أيضاً أن "قيادة" الثورة ونتائجها بقيت أسيرة الثقافة والسياسة الطائفيتين، إلّا أن استكمال دخول المناطق الأخرى التي تشكل منها "لبنان الكبير" في مسار التطور الرأسمالي اللاحق، قد تم أيضاً بعملية إحياء للثقافة والسياسة الطائفيتين لدى سكان تلك المناطق. فكان من نتائج هذا المسار الطائفي في "التطور" الرأسمالي في لبنان، بروز نظام سياسي وثقافي "هجين" من الليبرالية الطائفية سمحت ببروز "المثقف النقدي" إلى جانب "المثقف التقني" و"مثقف السلطة" في "المجال العام اللبناني". وكل فئة من فئات هؤلاء المثقفين تجد الفرصة أمامها لتحقيق دورها؛ مع لفت النظر إلى أن موقع "المثقف النقدي" هو الأضعف نظراً لكثرة العوائق والتحديات التي يواجهها ومن بينها "هشاشة" السند أو القوى الاجتماعية التي يفترض أن يعبّر عن مصالحها في نقده للنظام والوضع الراهن. أمام هذا الواقع العام للمثقفين في لبنان، معطوفاً على نمط العيش في راس بيروت المحكوم بوجود الفئات الوسطى والعليا من الطبقة الوسطى المشار إليها آنفاً، لا يعود مُستغرباً أن تطغى على العلاقات بين هؤلاء المثقفين النزعات الشخصية المشحونة بشيء من "الغيرة والحسد" المكبوتين، وكذلك الرغبة الدائمة في إحراز التفوق على "الآخر" المنافِس. وينسحب هذا النمط من العلاقات على نتاج المثقفين أنفسهم. فنلاحظ مثلاً أن الكتابات والأبحاث نادراً ما تتفاعل مع غيرها من الكتابات الصادرة قبلاً، والمعنية بالبحث المطروق نفسه. وإذا تم التفاعل من زاوية نقدية، فسرعان ما تتحول هذه الخطوة إلى خلاف شخصي لا يمت بصلة إلى الجانب الفكري لما هو مذكور في البحث المعني. هذا جانب مما يلاحظ عند الاحتكاك بفئة "المثقفين" من الطبقة الوسطى في منطقة راس بيروت.

16 ومن بين فئة ما أدعوه "المثقف النقدي"، فقد تعرّفت على عدد منهم عبر اطّلاعي على كتاباتهم والتعرف الشخصي على بعضهم. أسارع إلى القول إن كتابات هؤلاء (من أمثال وضاح شرارة وفواز طرابلسي وأحمد بيضون وياسين الحاج صالح وحسن قبيسي وخالد زياده وملحم شاوول وفريدريك معتوق وفؤاد خوري وناصيف نصار وعلي حرب، وكتاب المقالات كحازم صاغية والياس خوري -وهو روائي مبدع أيضاً- كما جبور الدويهي وحسن داوود ورشيد الضعيف ومحمد أبي سمرا...) تحتوي على جهد نقدي وإبداع فكري يخولها أن تكون في صدارة الأبحاث والكتابات عن لبنان وبعض جوانب المجتمعات العربية، أي عن المجتمعات المنقسمة و"الطَرَفية" أو "شبه الطَرَفية" (ولرشتاين). إلا أن طغيان الكتابات الصادرة بأقلام الباحثين الغربيين في هذا المجال ومن منظور التجربة الغربية، ومعظمهم من المجتمعات الأنغلو-سكسونية يكتبون باللغة الإنكليزية ويحتكرون إلى حد كبير ما ينشر في دور النشر العالمية والمجلات الأكاديمية، يعرقل لا بل يمنع الاعتراف بمساهمات هؤلاء المبدعين النقديين، خصوصاً أن معظم كتاباتهم لا تجد طريقها إلى النشر في المجتمعات الغربية بعد ترجمتها إلى اللغة الإنكليزية. وبالفعل، أن للهيمنة والسيطرة تجليات معرفية وإبستمولوجية، كما برهن فوكو في كتاباته القيمة.

إن السكن في بيروت (ولبنان عموماً) يظهر أن العديد من الأمور التي يعتبرها
جدال فيها، هي في الواقع موضع تساؤل ونقد بالنسبة لي على الأقل. على
مكان ما قريبة بالنسبة إلى من قضى جزءًا من حياته في أستراليا، وأن تكون ا
وجهة نظر اللبناني الذي لم يغادر بلده، فهذا أمر طبيعي؛ لأن بعد المسافات
مساحة البلد وانتشار السكان على أرضه. أما المسافة الاجتماعية بين الأفراد
الجغرافية التي تفصل ما بينهم، وإنما تتحدد بالحواجز الطبقية، وفي الحالة ال
الانتماءات العائلية والمناطقية، وعلى رأسها الهويات الطائفية. ففي لبنان، ي
جغرافية لا تتعدى عشرات الأمتار من مكان سكن مجموعة أخرى من اللبنانيين
وكأنهم على مسافة مئات الكيلومترات منك بالمعنى "الاجتماعي" الفعلي و'
الكلام ينطبق على سكان منطقة الشياح وعلاقتهم بسكان عين الرمانة؟ وعلى
سكان النبعة؟ وماذا عن المسافة "الاجتماعية" بين العائلات في البلدة أو الق
بعيدة بين سكان "الرابية" أو "دوحة الحص"، وبين سكان البلدات المحيطة به

18 كان هذا الواقع في لبنان حاضراً على الدوام في ذهني، خصوصاً وأنا القادم من أستراليا حيث المسافات "الطبقية" تتقلص إلى حد ما بوجود دولة الرفاه التي تتبنى مبدأ العدالة "التوزيعية". أما المسافات الناتجة عن الفروقات "الأهلية" فقد ألغيت الى حد بعيد بجعل "المواطنة" هويةً مشتركة بين سكان أستراليا المتنوعين إثنياً ودينياً لدرجة تتعدى المجتمع اللبناني بأشواط كثيرة. رغم "تقليص" الزمان والمكان الناتج عن تطور وسائل الاتصال الاجتماعي وسرعة التنقل وانخفاض كلفته، تواجه يومياً في لبنان (كما في العديد من البلدان الأخرى) تحدي إلغاء الحواجز "الاجتماعية" التي تفصل فيما بين أبناء المجتمع الواحد.

19 وممّا صدمني بقوة خلال وجودي في لبنان، هو شبه غياب "المساحات العامة" وتعوّد اللبنانيين على ذلك. فالمجال خارج المنزل لا هو خاص ولا هو عام؛ إنه في "منزلة بين منزلتين". إنه مجال "يملكه" الجميع، ولكن ممارسة هذه الملكية "العامة" لا علاقة لها بحق الجميع "بالتساوي" في استخدام هذا المجال. وغالباً أن ما "يحق" لأحد ما لا يحق بالضرورة لغيره، أو أن هذا "الحق" بالذات ينفي تماماً حق الآخر في استخدام المجال العام. فالقاعدة في هذه الظروف هي أن الأولوية لمن يتمكن من أن يقتطع "المجال العام" لصالحه. فيمكن لصاحب متجر على سبيل المثال أن "يحجز" مكان لركن سيارة الزبون الذي يقصد متجره، مانعاً الآخرين من استخدام هذا المجال خارج هذا الإطار. ومع غياب القواعد العامة التي تنطبق بالتساوي على الجميع في استخدامهم للمساحات العامة، تقوم الاعتبارات الشخصية و"الأهلية" والسياسية أحياناً بـ"تنظيم" هذا الاستخدام. وبما أن بعض هذه الاعتبارات استنسابي وتقديري، والآخر متناقض وغير متجانس، تتحول "المساحات العامة" إلى "مساحات أهلية" محكومة بعلاقات قوة وسيطرة متنوعة ومتنافرة. وهكذا تتم التضحية بإنشاء مساحات عامة للجميع وبالتساوي لحساب ما هو خاص ومتنافر، كما هي الحال في جميع أوجه الحياة "العامة" في لبنان، وعلى رأسها مؤسسات الدولة.

تجربة التعليم الجامعي في لبنان

20 في المرة الأولى التي عدت فيها إلى لبنان (١٩٩٣-١٩٩٥)، عملت في الجامعة اللبنانية الأمريكية وكانت تُعرف وقتئذٍ بمعهد بيروت الجامعي، أستاذاً مساعداً في علم اجتماع السياسة. كانت الجامعة تستعد لتنطلق من جديد بعد أفول آخر فصول الحرب الأهلية (اتفاق الطائف عام ١٩٨٩ والمواجهة العسكرية بين القوات اللبنانية والجيش اللبناني بقيادة ميشال عون من جهة وبين قوات النظام السوري وأنصار ميشال عون من جهة ثانية). كانت المرة الأولى التي أعمل فيها في لبنان مدفوعاً بحماس من يطمح في العودة من المهجر والاستقرار من جديد مع كامل أفراد عائلته. ولم ينقضِ وقت طويل لأكتشف أن الطابع الغالب على تلك المؤسسة التربوية الخاصة هو التعليم، ولا شيء آخر سوى التعليم. وكانت تسميتها بالمعهد تناسب المهمة الأساسية التي تقوم بها: تخريج التلاميذ بمهارات في عدة حقول تخولهم أساساً العمل في السوق المحلي، و
السفر إلى بلدان الخليج أو الولايات المتحدة. دفعني هذا الواقع لأتطلع للعم
المكان الذي يمتلك الرصيد التاريخي الذي يخوله ليستعيد دوره كمؤسسة جا
وعلّمت فيها في سيدني. فانتهى بي الأمر إلى أن أشتغل بدوام كامل في مع
في الجامعة الأمريكية في بيروت. وكما سبق وأشرت في فصل آخر، لم أمكث
بالعودة إلى سيدني إثر انفجار كنيسة السيدة والتطورات السياسية التي أعق

الدائرة التي عملت فيها كانت تقدم برامج بكالوريوس في العلوم السياسية و
وبرنامج ماجستير في العلوم السياسية وفي العلاقات الدولية. في هذا الإطا
مقدمة في علم الاجتماع ومقدمة في العلوم السياسية، وعلم اجتماع العالم ا
النامية، وتاريخ لبنان الحديث. كما قمت بتدريس بعض المواد التي تشكل جز
رأسها موضوع "الفكر السياسي العربي المعاصر". وبحكم هذه التجربة، اختبر
يدرسون في معهد بيروت الجامعي وتكشفت لي عدة أمور أهمها أن غالبية ا
الغنية في المجتمع اللبناني (طبقة وسطى عليا وطبقة أغنياء). غير أن العائل

معظمها حديثة النعمة ولا تمتلك بالتالي "الرأسمال الثقافي" الذي تصادفه عادة عند أبناء الطبقة الوسطى العريقة والمتجذرة في موقعها الطبقي. كان معظم التلاميذ يتحدرون من عائلات قد راكمت ثروتها عن طريق الهجرة والعمل خارج لبنان. ومع "انتهاء" الحرب الأهلية عام ١٩٩٠، عاد العديد من العائلات المهاجرة إلى لبنان أو أرسلوا أبناءهم ليتعلموا في جامعاته. وكان معظم التلاميذ الذين يدرسون في الكلية التي أدرّس فيها لا يملكون المؤهلات الأكاديمية التي تخولهم الالتحاق الجامعة الأمريكية في بيروت، أو أنهم لا يرغبون في ذلك لعدم قدرتهم على تقبل "تبعات" رصيدها الأكاديمي رغم سنوات الحرب الأهلية وتخفيضها من ذلك الرصيد. على ضوء هذه الخلفية، اتسم سلوك معظم التلاميذ الذين كانوا يدرسون في المعهد بمسلك من هم "حديثو النعمة": إفراط في البذخ والاستهلاك والتعاطي مع الدراسة بصفتها وسيلة لاكتساب "صيت" المتخرج من معهد بيروت الجامعي.

22 رغم هذا الواقع المعقّد، حاولت (وزملائي في الكلية) أن أقوم بواجبي كأستاذ يتولى مسؤولية تدريس الطلاب بكل حرفية والتزام، وما كان يخفف من وطأة هذا الواقع الصعب الظهور الدوري لأقلية من الطلاب لا تتعدى الـ٥٪ كانوا يتعاطون مع الدراسة بجدية كاملة تشير إلى خروجهم على ثقافة وسلوك أبناء "حديثي النعمة". الميزة الأخرى التي واجهتها في المرة الأولى التي درّست فيها لثلاث سنوات في لبنان، هي عملي في مؤسسة جامعية يطغى على سياستها التربوية مهمة التدريس لا غير، إذ لم يكن المعهد في تلك المرحلة يعير أي اهتمام لدعم الأساتذة للقيام بأبحاث جديدة، كل في اختصاصه. وعليه، كان على الأستاذ أن يعلّم أربع مواد في الفصل الواحد، أي ما مجموعه ثماني مواد في السنة الواحدة. كان يشكل هذا "الحمل" التعليمي عبئاً ثقيلاً يقطع الطريق على توفير الوقت اللازم للقيام بالأبحاث والتأليف والنشر في المجلات الأكاديمية المحكمة.

23 استقلت من الجامعة مع نهاية العام الدراسي الثالث لألتحق بالتعليم وبعائلتي في أستراليا من جديد. وفي عام ٢٠٠٤، عدت للعمل فيما أصبح يعرف باسم "الجامعة اللبنانية الأمريكية" بدلاً من "معهد بيروت الجامعي". وقبل التحاقي مجدداً بالجامعة اللبنانية الأمريكية، عملت لثلاث سنوات في جامعة سيدة اللويزة بتشجيع من رئيس الجامعة وقتئذ، الأب بطرس طربيه، وقد قبلت العرض على أساس أن نائب رئيس الجامعة اللبنانية الأمريكية وعدني بأنه سيدعوني للعمل مجدداً في تلك الجامعة في غضون سنة واحدة في أقصى تقدير. استغرق تنفيذ الوعد ثلاث سنوات بسبب نشوب خلافات حول تولي رئاسة الجامعة كدت خلالها أن أفقد الأمل بتلك العودة. على أية حال، قمت خلال عملي في جامعة سيدة اللويزة بتقديم مشروع تأسيس "مركز أبحاث عن الهجرة اللبنانية". لقيت الفكرة استحساناً لدى رئيس الجامعة، الأب بطرس طربيه، فوافق على المشروع، وكان ذلك في بداية السنة الأكاديمية لعام ٢٠٠٣. وفي الفترة الفاصلة بين الموافقة على تأسيس المركز وعودتي إلى العمل في الجامعة اللبنانية الأمريكية في آب ٢٠٠٤، قام "الدكتور أمين ألبير ال
وضع يده على المركز الناشئ بكل ما في ذلك من "شطارة لبنانية" معهودة
(أقول هذا الكلام وأنا مسرور جداً لِتبني جامعة اللويزة لمشروع المركز في نها
رافداً مهماً في مسعى لإدخال موضوع الهجرة إلى دائرة اهتمام الأبحاث المت
موضوع الهجرة على المستوى الجامعي). المهم في الأمر، أن فكرة تأسيس
لبنان" قد خطرت على بالي على إثر عودتي الثانية إلى لبنان وملاحظتي لغيا
الظاهرة في الجامعات، أكان الجامعة اللبنانية أم الجامعات الخاصة. وكنت أت
في الوقت الذي لم يتوقف فيه نمو عدد المهاجرين اللبنانيين منذ منتصف ال
لبنان إلى بلد يستقبل المهاجرين من مختلف الأصناف (اللاجئ والعامل المو
تأسيسه عام ١٩٣٠. ورغم هذه الحقائق ومدى أهميتها على الاقتصاد والسيا
اهتمام الجامعات بهذه الظواهر لا يتعدى تشجيع عدد قليل من الطلاب على
الهجرة والمهاجرين (لعب الصديق بطرس لبكي دوراً أساسياً في هذا المجال
لبنان تولي الأهمية الحصرية والضرورية لدراسة وإجراء الأبحاث في موضوع

متعددة (تاريخية وأنثروبولوجية وعلم اجتماعية واقتصادية وسياسية ونفسية) التي أصبحت متوفرة في العديد من الجامعات في العالم منذ العقد الثامن من القرن الماضي.

24 من هنا وبكل تواضع، كانت المبادرة التي أطلقتها في جامعة اللويزة وأسفرت عن تأسيس "مركز بحث الهجرة اللبنانية" Lebanese Emigration Research Center.

25 وتلتها المبادرة الثانية التي قمت بها بعد التحاقي بالجامعة اللبنانية الأمريكية ونتج عنها تأسيس "معهد دراسات الهجرة" عام ٢٠٠٧، ثم إطلاق برنامج ماجستير في دراسات الهجرة عام ٢٠١٤. وكان الهدف من إنشاء المعهد تأمين الفرص للتلاميذ الذين يلتحقون ببرنامج الماجستير للتدريب على كيفية إجراء الأبحاث في الوقت الذي يدرسون فيه للحصول على الماجستير في دراسات الهجرة. وبسرعة لافتة، جذب هذا البرنامج عدداً كبيراً من التلاميذ من لبنان أساساً، ومن الدول العربية وسائر الدول الأوروبية وأمريكا الشمالية (وصل عدد المسجلين في البرنامج ٣٤ طالباً وطالبة). ومن الخطوات التي اعتمدتُها في تدريس البرنامج، كانت دعوة كبار الباحثين بين الحين والآخر لتقديم حلقة دراسية تتعلق بمجال اهتمامهم البحثي، وكان من بينهم الأساتذة بيغي ليفت وداليا عبد الهادي وفيليب فارغ (الأولى مديرة معهد علم الاجتماع في معهد وزلي وأستاذة مساعدة في هارفرد وصاحبة مفهوم "التحويلات الاجتماعية"؛ والثانية أستاذة مساعدة في جامعة لوند، السويد، ومتخصصة في دراسة الدياسبورة؛ والأخير أستاذ في علم الاجتماع والديموغرافيا في المعهد الجامعي الأوروبي، والمدير المؤسس لمركز سياسة الهجرة في المعهد الجامعي الأوروبي). كما ساهم الروائي والناقد الأدبي، الياس خوري، في تدريس صف حول "الدياسبورة اللبنانية والعربية والأدب". أنا فخور بهذا الإنجاز المتواضع وآمل أن يستمر ويتطور بعد تقاعدي من التعليم في الجامعة.

26 وأجد نفسي بالفعل مندفعاً لتقديم الشكر والمحبة لجميع الطلاب والطالبات الذين كان لي الشرف أن يدرسوا معي (وأدرس معهم) في السنوات الماضية، وعلى الأخص الذين أظهروا لي اهتمامهم بما كنا نتعلمه سوياً. هؤلاء الطلاب كانوا ولا يزالون من الذين يجعلون الحياة تستحق أن نخوض غمارها.

الهجرة طاقة ثقافية تغييرية

27 سبق أن أشرت إلى العمل السياسي الذي انخرطت فيه في أستراليا، أكان ذي علاقة مع الوطن الأم أو مع القضايا المتعلقة بأستراليا. وأريد ان أعود إلى هذه التجربة مضيفاً بعض الأمور التي لم يتسنَّ لي ذكرها من قبل. في الشأن اللبناني، يبدو لي استحالة تفسير انهماكي في العمل السياسي المتعلق بلبنان إلى جانب عدد كبير من المهاجرين، وكل من موقعه، بالقول فقط إنني مع هؤلاء المهاجرين مجرد "صدى" أو "انعكاس" لما يحدث في لبنان. ولا يكفي الانتباه إلى الدور الشعوري-الحميمي لهذا النشاط الوطن واستحضار لبعض من سماته (السياسية) إلى بلاد المهجر. كان هناك تنمو ببطء مع ما أفرزه وجودنا في أستراليا، إلى جانب الجاليات العربية وغيره وتستقر في أستراليا. حتى بداية سبعينيات القرن الماضي، كان النظام في أس يقوم على فعل استيطاني أصلي وأصيل بحق الأبوريجينيين، أي السكان الأص عملية محو شاملة للهويات والممارسات الثقافية المغايرة للمهاجرين غير الأ إلى أستراليا خصوصاً بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. في عقد السبعينيات، الحكومة العمالية وقتئذٍ (١٩٧٢-١٩٧٥) بفتح ثغرة أساسية في جدار هذا النظام رسمياً بأن المجتمع الأسترالي متعدد الثقافات وعلى الدولة الاعتراف بذلك ع جديدة تحافظ على الثقافات غير الأنغلوسكسونية وتحميها من التمييز العنص حكومته مسار الاعتراف بأن السكان الأصليين هم أصحاب الأرض الشرعيين، و لمعالجة الآثار المدمرة لسلب الأرض التي يعيشون عليها ولسياسة التمييز وا بحقهم منذ احتلال القارة الأسترالية.

28 في هذا السياق، بدأت مع بعض الرفاق في فرع المنظمة بنقاش كيفية تموضع نشاطنا السياسي ضمن هذا التوجه الجديد للنظام السياسي في أستراليا، والتفكير في رسم المهام المتوجبة علينا على الساحة في أستراليا، بالتوازي مع نشاطنا الخاص بلبنان. وبدأت المهام تتبلور يوماً بعد يوم واستطعتُ إدراج جميعها تحت العناوين الأساسية التالية: الوقوف بالمرصاد ضد جميع صنوف التمييز الإثني (المتجسد في التعامل اليومي والمؤسسات والثقافة العامة)، والحفاظ على "الهوية الثقافية" للجالية مع إسقاط ما هو متعارض منها مع قيم الحرية والعدالة والديمقراطية وكرامة الإنسان، وتشجيع الانخراط في المجتمع الأسترالي والمساهمة الإبداعية في تكوين ثقافته التعددية (في مجال الأدب والفن وغيره). وقمنا بتأسيس "التجمع الثقافي الاجتماعي اللبناني-الأسترالي"، ومن خلاله تولى الرفاق والرفيقات والأنصار تنفيذ العديد من تلك المهام (أشرت إلى بعض هذه الأنشطة في صفحات سابقة). ما أريد أن أكتب عنه الآن يتناول ما هو أبعد من تلك الأنشطة، رغم أهميتها في حينه، وبصفتها رصيداً محتملاً للمهاجرين في المستقبل. إعادة التموضع الذي ذكرته أعلاه والاندفاع في تقبل تبعات تحول أستراليا إلى مجتمع متعدد الثقافات، دفع بنا إلى تشجيع الإنتاج الثقافي (كتابة القصص والشعر والإنتاج المسرحي) المنطلِق من واقع الجالية في أستراليا، سواء أكان باللغة العربية أو الإنكليزية. ورأينا أن هكذا نشاط لا يعبر ثقافياً عن شواغل المهاجر اللبناني وهمومه فقط، وإنما يؤدي إلى الإبداع الثقافي في ظروف تختلف عن الظروف السائدة في لبنان. ولم نجانب الصواب عندما اعتقدنا أن هذا الإبداع (كما رأيناه عند ديفيد معلوف وعباس الزين ووديع سعاده وغيرهم) سيكون له تأثيرات إيجابية في الوطن والمهجر الأسترالي في آن معاً. وفي السياق نفسه، ألقينا الضوء على أنشطة ومناسبات ثقافية لبنانية-أسترالية، ودعمناها ضمن الإمكانيات المتوفرة، مثل إقامة معارض لرسامين ونحاتين مهاجرين من لبنان وفلسطين، وإنشاء متحف عن الهجرة اللبنانية إلى أستراليا في مدينتي سيدني وأداليد، وتأسيس جمعية أسترالية-لبنانية تاريخية تعنى بجمع مختلف الوثائق المتعلقة بالهجرة اللبنانية إلى أستراليا وأرشفتها. وكانت مساهمات أبناء الجالية في هذا المجال عديدة ومتنوعة، ولو قيد لها أن تحتضن من الدولة في لبنان بطريقة مدروسة عبر وزارة الخارجية والمغتربين ومن المتمولين "المتنورين" في الجالية في أستراليا لأصبحت أكبر وأكثر تنوعاً وغنى. ومع ذلك، فمسار الإبداع لا يزال سالكاً.

29 أخيراً، أجد نفسي أسجل هذه الخواطر لأظهر طاقة المهاجرين عموماً، ومن بينهم اللبنانيين، في مجال الإبداع والتجديد الثقافي، إلى جانب الطاقة السياسية التغييرية المحتملة التي أشرت إليها في جزء سابق من هذه السيرة. هي طاقة تجديدية ثقافية ينبغي التنبه لها والاستفادة منها في الوطن الأم وفي البلد الذي يستقر فيه المهاجر لإغناء "التعددية الثقافية" فيه، هي هوية اجتماعية-سياسية تتجاوز نزعة التمركز الثقافي والعنصرية القومية التي تحملها المجتمعات المستقبلة بحق المهاجرين.

الهجرة: التفاتة أنثروبولوجية (١)

أعادت تجربة الهجرة تشكيل نظرتي الذاتية إلى لبنان وبدّلت من أحاسيسي تج
هو عليه عند عودتي إليه. وأنا هنا لا أقصد أن البلد تغيّر، كما في حالتي أنا، م
في أستراليا. فهذا أمر طبيعي ومنطقي. ما أقصده بقولي هذا هو أن نظرتي
مغادرتي للبنان بشيء من الغضب الناتج عن تقلص فرص العيش الكريم فيه
الوقت أثناء وجودي في أستراليا وإذا بلبنان الذي أنتمي إليه الآن لم يعد فقط
محلة القبة، ولا مدرسة الآباء البيض التي تعلمت فيها، ولا الحي الشرقي في
ومختلف أقاربي، ولا الأصدقاء والجيران والدكاكين وفرن الحطب الذي كنت أ
"صينية الكبة" نزولاً عند طلب الوالدة. بدأ لبنان وأنا في سيدني في التحول إ
منطقة فيه، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى شواطئ البحر المتوس
إليها بالقوة نفسها. وأتساءل الآن هل كان لانتمائي السياسي لمشروع بناء نظا
علاقة بهذا التحول؟ ربما، لكن التحول الذي أتكلم عنه أبعد ممّا يمكن أن تحدث

يزال) تحولاً على المستوى الوجداني والشعوري الحميمي جداً. على سبيل التوضيح لما أعني بذلك، كنت كلما اشتبهت بأحد ما بأنه من أصول لبنانية، أو كلما قابلت شخصاً في السوق أو في أي مكان عام قادماً من لبنان، كنت أجد نفسي مندفعاً لأبني معه علاقة وأبدي كامل الاستعداد لمساندته والتقرب منه، بغض النظر عن المكان الذي يتحدر منه في لبنان أو الطائفة التي ينتمي إليها. هكذا نسجت خلال وجودي في سيدني علاقات مع أشخاص من مختلف المناطق اللبنانية كان يتعذر عليّ أن أنسجها لو بقيت في لبنان. هذا الشعور والاستعداد الفوري للتماهي والتكافل مع كل مهاجر من لبنان، بدأت أختبره بعد قدومي إلى أستراليا. في المقابل، لا أقول إن هذا الشعور لم أحسه خلال وجودي في لبنان قبل هجرتي إلى أستراليا، لكنني كنت أشعر به تجاه المحيط الضيق الذي كنت أعيش فيه ولم يتعدَّ دائرة الأشخاص المحيطين بي، سواء من الأهل والأقارب أو الأصدقاء. في سيدني، لم يعد وطني متجسداً بالقبة وطرابلس وزغرتا وأقاربي وأصحابي، بل كبر وتوسّع ليشمل كامل لبنان وأي فرد من أبنائه. ومع عودتي المتكررة إلى لبنان، وجدت نفسي مندفعاً على الدوام لزيارة جميع مناطقه والتعرف على أهلها، ولو بصورة سريعة وسطحية، دون أدنى شك. وهذا أمر غير مألوف لدى "اللبنانيين" الذين لم يغادروا أراضيه.

31 وأضيف أيضاً أنني قبل هجرتي من لبنان كنت من الراغبين بحماس في الاستماع إلى الأغاني الفرنسية والإنكليزية (أزنفور وميشال بيكو وميراي ماتيو والبيتلز...)، ونادراً ما كنت أتقصد الاستماع إلى الأغاني العربية. ومنذ قدومي إلى أستراليا بدأت "الآية تنقلب"، ووجدت نفسي أنجذب تدريجياً إلى الاستماع إلى المغنيين اللبنانيين (والعرب)، لا سيما أغاني فيروز ووديع الصافي ونصري شمس الدين وزكي ناصيف وغيرهم. والملفت أكثر في هذا التحول كانت الطريقة التي كنت أتذوق فيها تلك الأغاني والألحان والأحاسيس التي كانت تثيرها في داخلي وفي مخيلتي. أصبحت للمرة الأولى في حياتي أصغي جيداً إلى اللحن والتوزيع الموسيقي والكلمات إلى درجة "السكن" في داخلها، متمعّناً بالصور الشعرية واللحنية لتلك الأغاني ومنجذباً إلى الصور والمشاعر والأفكار التي يُطلق لها العنان في مخيلتي. وبدأت أدرك أن الموسيقى لغة مميزة تعتمد على الصوت خارج الكلام المستخدم للتواصل بين الناس ومستوحاة من أحاسيس الناس (كل الناس) والأصوات (جميع الأصوات) التي يعبرون بها عن انفعالاتهم و"مواقفهم" تجاه الحياة والطبيعة. وتعمقت هذه التجربة في التعاطي والتفاعل مع الأغاني والموسيقى المذكورة أعلاه مع التعرف على الأغنية الملتزمة، وعلى رأسها أعمال مرسيل خليفة وزياد الرحباني. هكذا أصبح استماعي إلى الأغاني والموسيقى للفنانين اللبنانيين "جسراً" للعبور إلى الوطن بكامل أجزائه وللتعاطف والتواصل مع كل أبنائه.

32 وعكس ما يقال، فإن الهجرة من لبنان لا تؤدي بالضرورة إلى "هبوط" درجة الانتماء إليه وصولاً إلى "الاضمحلال" التام. فهي أولاً قد تعيد تشكيل هذا الانتماء عند البعض ليتجاوز الأمكنة التي
والحي والطائفة (على أهميتها في سياقات مختلفة) ويتسع للوطن بكل أجزا
الهجرة بتحويل نظرة المهاجر (أو البعض منهم) إلى "اللبنانيين" بصفتهم أبناء
وتعريفهم أساساً بأنهم مواطنون لبنانيون. هذا أمر، لم تلحظه النظريات التي
والمواطنين. فكان التركيز دائماً عند أصحاب هذه النظريات على السياقات ا
نعم، أضاف بعض الباحثين كلاماً على الوطنية أو القومية "العابرة للحدود ال
من زاوية أنثروبولوجية، إلى دور الهجرة والاقتلاع في صياغة الهوية الوطنية ا
الشعوري والحميمي للفرد. أختم بالقول مجدداً إن الهجرة والمهاجرين طاقة ت
بالشكل الصحيح.

الهجرة: التفاتة أنثروبولوجية (٢)

تحدي المهاجرين للمجتمعات الليبرالية المتطورة

33 منذ سنوات وأنا أتساءل عن علاقة الإنسان بالمكان وما يدور فيه من أحداث وما تتشكل فيه من علاقات ومنظومات وقيم وممارسات؟ والدافع لهذا التساؤل هو ما يحدث من تعديلات وتبدلات لتلك العلاقة بسبب القدرة المتنامية للإنسان على الانتقال السريع والمتكرر من مكان إلى آخر والانتقال المكثّف لـ"الأشياء".

34 والأفكار والمعلومات تؤدي أيضاً إلى تحويل علاقة الإنسان بالمكان دون أن يغادره بالضرورة. فتكنولوجيا الاتصالات واتساع دائرة المعاملات والتبادلات لتشمل مختلف أصقاع الأرض وقدرة المعلومات المرئية والمكتوبة والمسموعة على التجاوز "الحر" للحدود الوطنية وغيرها، كفيلة بأن تنقل أموراً عديدة من أماكن مختلفة لتصل إلى متناول الفرد دون أن يغادر البلد الذي ولد فيه. ولا شك أن الانتقال من الأنظمة الإقطاعية إلى النظام الرأسمالي وتلازم ذلك التحول بظهور الدول القومية أو الدولة-الأمة، قد أحدث تحولاً أساسياً في علاقة الإنسان بالمكان وبما فيه من بشر وثقافة ومنظومة علاقات. بالنتيجة توسّع المكان "المتخيَّل" ليصبح "وطناً"، وحلّت الهوية القومية مكان الهويات المحلية الضيقة (أو أنها أصبحت الهوية الجمعية الرئيس في سلسلة الهويات المحلية والأهلية الضيقة)، وتوسّعت دائرة تداول الأشياء والأفكار والمعلومات لتشمل بخاصة الكيان الوطني للأشخاص المعنيين. ومع تطور النظام الرأسمالي في الدول النامية، لا سيما مع بداية العقد الثامن للقرن الماضي وانهيار المعسكر الاشتراكي السوفيتي، بدأت المعايير الوطنية بالتراجع (لكنها لم تسقط بالكامل) أمام حراك البشر والأشياء والأفكار والمعلومات، الأمر الذي لم يبق على حصرية تأثير المجال الوطني على علاقة الفرد به. فبدأ تماهي الفرد والجماعات بالتعدد والتنوع، أكان بالعلاقة مع المكان (لم يعد الإقليم الوطني هو المحدد الرئيس للهوية) أم بالعلاقة مع القيم والثقافات. المهاجِر والمهاجرون والأجيال المتحدرة منهم يجسدون هذا التحول بامتياز (بالطبع هناك أفراد وجماعات ومؤسسات أخرى يجسدون التحول إياه، كحركات الحفاظ على البيئة والحركات ضد العولمة والتسلح النووي وصندوق النقد الدولي وإلخ) وبالنسبة لي كمهاجر، أجد أن جوانب عديدة من شخصيتي وشعوري وأفكاري لا يمكن إدراكها إلا بالعودة إلى التحولات المذكورة أعلاه. وإذا أبقينا حصرياً على المنظور الوطني، وما يتناسل منه من أفكار وقيم وأمنيات، فإننا لا نستطيع أن ندرك ما يحدث لنا كأفراد وجماعات في هذا الزمن المحكوم بالديناميكية التي أطلقها مسار العولمة.

35 أنا المهاجر من لبنان إلى مدينة سيدني، قد تولّد لدي مع مرور الزمن ارتباط مزدوج بلبنان وأستراليا معاً. ولهذا الارتباط تعبيرات مختلفة. فأنا أساساً أمتلك وأشعر بالانتماء إلى لبنان كمكان جغرافي محدد رغم مغادرتي له لسنوات عديدة، لكن هذا الانتماء لم يعد محصوراً بلبنان فقط. فقد أصبح لدي انتماء لبلد آخر، وهو أستراليا التي هاجرت إليها عام ١٩٧١. يعلو منسوب الانتماء ويهبط لكلا البلدين حسب الظروف، إلا أن صفته الازدواجية تبقى ملازمة لي دائماً. وغالباً ما أشعر بالانجذاب إلى "أمكنة" (بلدان) أخرى، منها ما قمت بزيارتها وأخرى لم أزرها بعد. وطبيعي أن هذا الانجذاب لا يشبه شعوري تجاه لبنان أو أستراليا، إلا أنه قابل
في تلك البلدان والعمل فيها لبعض الوقت. ما أود الإشارة إليه هنا هو أن اح
يتزايد باطراد مع تعزيز العولمة وتطورها. فلا عجب إذن أن نصل بعد فترة، لا
الأول من المهاجرين، إلى أن نمتلك شعوراً بالانتماء إلى أكثر من بلد أو بلدين
العديد من القيم والتقاليد والممارسات التي أتيت بها معي إلى أستراليا ومن
والصداقة وتبادل الزيارات وطقوسها، ومنها ما يتصل بالمأكولات وطرق تحد
والدينية وطقوسها. وماذا عن المهاجرين من بلدان أخرى ونقلهم لعاداتهم وت
معهم، هذا بالإضافة إلى التفاعل مع المجتمع الأنغلو-سكسوني والتكيف مع
على قيمي وطريقة حياتي؟ هنا أجد أن لا بد من الإشارة إلى التعبيرات اليوم
والقيم والعادات وغيرها. وليس بالعلاقة مع المكان فقط. فالعلاقة بالأمكنة ت
النظم والقيم والعادات والطقوس الاجتماعية وغيرها. وتضع هذه التطورات
منها والمتطورة- أمام تحديات جديدة؛ وتجربتي في أستراليا خير دليل على ذ
القرن العشرين، وجد نظام "الويست منستر" الليبرالي في أستراليا نفسه مذ
والإثنية الأنغلو-سكسونية التي بُنيَ عليها هذا النظام منذ استعماره الاستيط

أمام النظام الملاءمة بين مُثله الليبرالية وبين حصر شرعيته بالهوية الإثنية الأنغلو-سكسونية. أن تكون ليبرالياً حقاً، يعني أن تعترف بالتنوع وحق هذا التنوع في التعبير عن ذاته، وأن تعترف بعدم أخلاقية الفعل الاستيطاني الاستعماري لأستراليا و"لشعوبها" الأصلية، وضرورة التعويض لها ومعالجة تبعات ذلك الفعل الأصلي الشنيع. ومنذ بداية سبعينيات القرن الماضي والنزاع يدور في أستراليا حول الخط الفاصل بين التعدد والاختلاف المقبولين، وبين ما هو عام ومشترك بين جميع أبناء المجتمع.

36 الهجرة وتعرضي لطرق حياتية وقيم وممارسات مختلفة تدفعني لتقبل "الآخر" وتدفع "الآخر" لتقبلي، وإلى تغيُّري وتغيُّره في الوقت نفسه، دون إغفال النزاعات وظهور "الأصوليات" في سياق هذه التفاعلات وبروز المنظومات المتولدة عنها. ولكن ما يطلق العنان ذهنياً لهذا المسار النزاعي حيناً، والتوليفي حيناً آخر، هو طرحه الخيارات خارج المألوف، أكان بالنسبة للمجتمع المستقبِل للمهاجرين أم بالنسبة للمهاجرين الوافدين. تعدد الخيارات وتنازعها المستند دائماً إلى نظم سيطرة أو/وعلاقات استغلال، تحفز المهاجر والمستقبِل له على السواء على زعزعة البديهيات التي نشأوا عليها، والمقارنة بين القيم والعادات وما يسفر عن كل ذلك من احتمالات للخروج على المألوف. بعبارة أخرى، الهجرة والعولمة هما العاملان اللذان دفعا بتظهير الحدود والنواقص في الليبرالية الغربية. المهاجرون كامتداد بشري للعولمة هم طاقة تحريرية بهذا المعنى، ليس فقط لمجتمعاتهم الأم، بل أيضاً للمجتمعات التي يستقرون فيها.